www.jalhss.com
ISSN online: 2414 – 3383
ISSN print : 2616 - 3810

JALHSS

العدد (27)
تموز - يوليو 2018

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع

فنون البديع في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري (ت 449 هـ) (الألغاز والسجع أنموذجان)

م . د . زكي عباس راضي
قسم اللغة العربية
كلية التربية ـ جامعة القادسية
العراق

الخلاصة

يعنى هذا البحث برصد بعضٍ من فنون البديع التي وشحت بها رسالة الصاهل والشاحج، وبخاصة (الألغاز والتورية، والسجع)، لتميز المعري فيهما ولنهجه منهجاً مخالفاً لما درج عليه كلٌ من كتب بهذين الفنين البلاغيين، وسبب عنايتنا في هذين الفنين ؛لأن في الرسالة عالم خفي لا يسعه بحث، ناهيك عن احتوائها علوماً عديدة من علوم اللسان العربي. وقد تصدرت الألغاز والتورية لغة الرسالة في جلّ مادتها القصصية ولاسيما في القسم الأول منها، ويلحظ متلقي الرسالة شغفاً بهذا الفن من لدن المعري واللافت أن الالغاز يأتي بصورٍ قصصية متجانسة إذ يلغز المبدع نصه ،ومن بعدُ يفك معمياته بنفسه بأسلوب جميل ومشوق وعلى لسان شخصيات حيوانية. أما السجع في الرسالة فمزيته أنه جاء خالياً من التكلف والتعمل متلائماً مع سياق حال النص الذي ينشؤه، كما يتميز سجع الرسالة بأنه يأتي بوتيرة متباينة ارتفاعاً وخفوتاً وبالعكس ، وعليه نجد المعري ينتقد من بالغ بهذا الفن وحمله ما لا يطيق ، بوساطة اسلوب القصِّ .

Al - Badi ' Art in Al - Sahel and Al - Shajaj' s Message of Abu Ala 'Al - Maari

ABSTRACT

The message of Al-Sahel and Al-Shahij is a story of narrative will be interrelated events, Al-Maari (the author) managed it on the tongues of beasts, and he made these beasts as a source of the events of the message. These animal figures are symbols of categories in the author community (Halab 'Aleppo' and cities surround it) it means social classes in the era of Al-Maari and every animal figure has a profound connotation. Those who read the message carefully realize that Al-Maari has worn the mule's character mask (Al-Shahij), it was distinguish from the rest characters of the message with certain marks to describe (Al-Shahij) with similar features to the character of Al-Maari such as blindness and residence in one place, as well as the capacity of this character and the advantage of conservation because it is blind does not see. The message as a whole is based on two things: the first superficial phenomenon and the second is profound and here is the intent of the author. This message is one of the long messages of Al-Maari such as (forgiveness, the message of angles and the chapters and the aims). The reason for authorship this message is that some supporters of the governor in Halab (Fatik al-Rumi), they give him a request includes that the share of the emirate is that the sons of the brethren of Al-Maari that the land should not be produced, this is reason for authorship the message, which seems to have hope for this governor , and the interior of the intention is different from the appearance, so it was the style of mysteries and assonance was one of the methods of Al-Maari to deliver his ideas of objectivity and artistic. Anybody looking at the book (History of Halab by Ibn al-Adim) will find the credibility for events of the message in this historical manuscript. The author was interested in recalling the common meanings of the community, and employed to obey his text, the culture of the author contributed a great deal to recall the different meanings that correspond to the intent of the text, to know it is capacity of syllabus abundance that reduces the verbal redundancy that distracts the recipient's mind . The research is interested in the monitoring of some of the arts of Al-Badi, which has been that characterized the message of Al-Sahel and Al-Shahij, In particular: mysteries, metaphors and assonance, in which Al-Maari is distinguished in it, where he took a different approach to what was written from each of the writers in these rhetorical arts. The message is a comprehensive book for the majority of Arabic linguistics. The mysteries and metaphor were the language of the message in most of its narrative material, especially in the first section of it, and the reader observes a passion of this art by Al-Maari. The remarkable, that the mysteries come in homogenous stories, where the author put a puzzle in its text and then solve the puzzle by himself in a beautiful form and on the tongues of animal figures. The assonance in the message has advantage of being free from faked and preciosity and it is compatible with the context of the text that it is creating. The assonance of message is also characterized by varying frequency of high and low and vice versa.

المقدمة

رسالة الصاهل والشاحج قصة سردية مترابطة الأحداث، أدارها المعري على ألسنة البهائم، فجعل من هذه البهائم أصل مدار أحداث الرسالة ، وهذه الشخوص الحيوانية هي رموز لفئات في مجتمع المعري نفسه (حلب وأعمالها) أي الطبقات الاجتماعية في عصر المعري وكل شخصية حيوانية من ورائها دلالة عميقة ، ومن يقرأ الرسالة قراءة المختصَّ يدرك أن المعري قد لبس قناع شخصية البغل (الشاحج) ، وميزها عن باقي شخوص رسالته بعلامات دالة وذلك لوصفه (الشاحج) بأوصاف تلتقي وشخصية المعري مثل صفة العمى ، والاقامة في مكان واحد ناهيك عن سعة اطلاع هذه الشخصية ومزية الحفظ لأنها عمياء لا تبصر، والرسالة بمجملها تقوم على رصد بنيتين الأولى سطحية ظاهرة ، والثانية عميقة وهنا يكمن قصد مؤلفها.

تعدُّ هذه الرسالة من رسائل المعري الطوال كـ (الغفران، ورسالة الملائكة، والفصول والغايات)، أما سبب تأليف الرسالة أن بعض أعوان والي حلب للفاطميين (فاتك الرومي) رفعوا إليه أن حقاً للإمارة وجب على أبناء أخوة المعري عن أرض لا تنتج، وكان هذا السبب بأن الف هذه الرسالة التي في ظاهرها التماس لهذا الوالي، وفي باطنها مقاصد تختلف عن ظاهرها، لذا كان أسلوبي الالغاز، والتسجيع من أساليب المعري لإيصال أفكاره الموضوعية والفنية . ومن يفتش في كتاب (تاريخ حلب لابن العديم) يجد مصاديق لأحداث الرسالة في هذه المدونة التاريخية.

إنَّ المتلقي الحصيف يلحظ أن كاتبها تعمد استدعاء المعاني المتداولة في المجتمع، إذ وظفها لتطاوع نصه، وساهمت ثقافة الرجل مساهمة كبيرة باستدعاء المعاني المختلفة التي تتلاءم ومقصدية النصِّ ؛ لمعرفته أنَّها مستوعبةٌ فيضاً دلالياً يختزل الاطناب اللفظي الذي يشتت ذهن متلقيه.

المبحث الاول
الألغاز والتورية

اختلف البلاغيون في فصاحة أسلوب الألغاز، فمنهم من استبعده من دائرة الفصاحة، ويمثل هذا الرأي ابن سنان الخفاجي، وعلته في مذهبه هذا أنه من مقتضيات الفصاحة والبلاغة أن يكون المعنى واضحاً جلياً يمكن للمتلقي إدراكه واستيعابه، ومن بعدُ يفتش في مواطن الجمال البلاغي في كنهه[1]، ومنهم من أعجب به أي إعجاب وعدّه من الأساليب البلاغية الظريفة[2]، وذكر البلاغيون أيضاً أن المعري قد شغف بهذا الفن، قصد ايهام متلقيه أنه يريد معنى وهو يبغي معنى آخر باطن[3] .

تصدرت الألغاز والتورية[4] رسالة الصاهل والشاحج، إذ امتازت اللغة التي كتبت بها الرسالة، بأنَّها لغة ملغزة في جُلِّ مادتها القصصية .

التوريةُ والألغاز، وجهان من وجوه التعقيد اللغوي أدخلها البلاغيون تحت مظلة فنونهم البديعية، وعني المعري بهذا الفن البلاغي أي عناية في سائر أدبه شعراً ونثراً[5]، ونرى ذلك واضحاً في رسالة الصاهل والشاحج، بقول المعري على لسان شخصية (الشاحج) مخاطباً شخصية (البعير): **((... فعدلتُ عن ذلك إلى تحميلكَ أخباراً مستظرفة لها في المسمع ظاهرٌ ولها في المعنى باطن، أنحو بها ما نحاه (ابن دريد) في (كتاب الملاحن) و(ابن فارس الرازي) في (فُتيا فقيه العرب)...))**[6]، وبعد هذا العرض رحّبَ (البعيرُ) بهذه الألغاز، تكفيراً عن تجنيه على الشاحج[7]، فألقى الشاحج عليه نصَّ رسالته منبهاً عن تعمده الالغاز والتورية فيها، غير أن "البعير" أعياه الشاحج، وهو ما دعا الأخير إلى حَلِّ ألغاز رسالته ؛ مما حدا بـ(الشاحج) إلى أن يتفنن في الدعاء على (البعير) لضيقِ أفق تفكيره واستحماقهِ، باستعمال فن الألغاز والتورية، ومن ثُمَّ حلّه ألغاز دعواه عليه أيضاً[8] .

إنَّ الثقافة اللغوية للمعري أعانته على أن يبلغ بهذا الفن مبلغاً كبيراً، والمتلقي عند قراءته لألغاز هذه الرسالة، يدرك للوهلة الأولى أن فك هذه الألغاز تحتاج صاحبها نفسه الذي ألغزها قبل تجريدها وعرضها على معجمات اللغة . وهذا ما وقع، بعد استحماق (البعير)، إذ قام المعري ،مبدع هذا النصِّ، على لسان (الشاحج)، بفكِ معميات رسالته، ومثال ذلك يتضح بقوله الآتي[9] : **((العِلْمُ يَدّلُ على أنَّ ((الحسن)) صلى الله عليه لم يرَ الحُسين قطُّ، وأنَّ ((الحسينَ)) صلى الله عليه لم يرَ الحَسَنَ قطُّ ؛ وأنَّ ((فاطمةَ)) – رضي الله عنها – لم ترَ في بيتها عَلِيَّاً، وقد يجوزُ أن تكونَ رأَتهُ على بابِ البيتِ، وأنَّ الخَلَّ يجوزُ أنْ يكونَ فيما سلَفَ، كان بحضرة ((علي بن الحسين)) [رضي الله عنهما] فيتكلم ويسأله عن أشياء في أمر الدين ؛ وأنَّ ((محمد بن علي الباقر)) عليه السلام ، وهو والدُ ((جعفر الصادق)) لم يَرَ في داره جعفراً قطُّ، وأنَّ ((الحَسَنَ والحسين)) كانا يأخذان البَتَّ بأيديهما فيجعلانه في أفواهِهما، ثم ينزلُ إلى الصدرِ منهما ...))**[10] .

يلحظ متلقي هذا النص أن ثمةَ غموض متعمدٌ وراء النص، لأن قراءته على ظاهر القول أو على وفق مرجعيات تاريخية لا يُخرجُ المتلقي بفكرة مفهومة مترابطة السياقات دالة على معنى بعينه، لذا أدرك مبدع النصَّ، بعد صفحات عِدّة، أنه بهذه الألغاز يكدَّ ذهن متلقيه، فيبدأ بحلِّ معمياته وعلى لسان شخصية (الشاحج) أيضاً، قائلاً : **((... إنّما الحَسَنَ والحُسَينُ كثيبا رملٍ[11]، ألغزتُهما عن ((الحسنِ والحسين)) صلى الله عليهما ... وهذا الذي عنيتُ بقولي : إنَّ ((الحسَنَ)) صلى الله عليه وسلم ، لم يرَ الحُسَينَ لأنَّا لم نعلم أنَّه – صلى الله عليه وسلم – رأى هذا الكثيب قطُّ ... والعليُّ : الفراش الشديدُ الصلبُ . والاشتقاقُ يَدُلُّ على أنَّهُ العالي[12] . فهذا الذي عنيتُ بقولي : إنَّ ((فاطمةَ)) – صلى الله عليها – لم تَرَ عليّاً في بيتها . والخلُّ : الرجلُ المهزولُ . ويجوز أن يكونَ المُختَلَّ الحالِ[13] . وهذا الذي عَنيتُ بقولي : إنَّ الخَلَّ يجوز أن يكون فيما سلف، كان يحضُرُ مائدة ((علي بن الحسين)) صلى الله عليه وسلم.**

والجعفر : النهرُ الكثيرُ الماءِ[14] . فهذا الذي عنيتُ بأنَّ ((الباقِرَ)) – عليه السلام – لم يَرَ جَعفراً في داره قطُّ . ألغزته عن ((جعفر الصادق)) صلى الله عليه وسلم))[15] . وبعد الرجوع الى المعاجم ومطابقة السياقات الواردة في النصِّ آنف الذكر وجدنا تطابقاً بين المعجم والدلالات التي يبغيها المعري من ألغازه مما يدل على ابداع وتفنن في عرض ثقافته اللغوية إذ مزج هذه الثقافة بفيوضات ذائقته الأدبية ذات المنحى الجمالي الذي ينشده البلاغيون ولاسيما من شغف بعلم البديع .

وفي موضع آخر من الرسالة يلغز المعري وعلى لسان (الشاحج) أيضاً حكاية عن علي بن أبي طالب (ع) قائلاً : **((... ويُوطأُ الجليلُ في زمانه بالقَدمِ . وإذا رأى نبيذاً في الجَرِّ سأل عن حالهِ، فإن كان معروفاً أَلزَمَ به أهلَه، وإن كان مجهولاً أنفق عليه من مالِ المسلمينَ حتى ينطقَ ويبلغَ الرُّشْدَ . وكان يلعَنُ البقَرةَ ولا يقول في الثور إلاَّ خيراً، ويُصَلِّي إن اتفق له فوق العَنْزِ . وأكلَ الصقرَ ولَم يأكل البازي لأنَّه من سباعِ الطيرِ . وكان يُعَلِّمُ البازِيَ أفعالَ الصالحين فإنْ قَبِلَ منه وإلا أدبّه بالسيف أو السَّوْطِ))[16]** . سمع (البعير) حكاية (الشاحج) في علي (ع) ولم يتنبه أن (الشاحج) قد جعل مقولته هذه موراتٍ، لذا فهم ظاهر الحكاية فقط، الذي لا يريد معناها (الشاحج)، ويبدو أنه قد مسَّ عقيدة كان يعتقدها (البعير)، وعليه جاءت ردوده على ألغاز (الشاحج) على ظاهر القول فقط، قائلاً : **((وقولك في الحكاية عن ((علي)) عليه السلام: أنّه كان يوطأُ الجليلُ في زمانهِ بالقدَمِ . فإنه كان لا يَزِيدُ جِلَّةَ القومِ عنده إلاّ رفعةً ما ثبتوا على الديانةِ . فإذا زاغوا عن المَنْهجِ وعَدَلوا عن المَحَجَّةِ خَشَّ أُنوفَهم بالذلَّة وعَرَنَها بالصَّغَارِ[17] . وقولك إنَّه إذا رأى نبيذاً في الجَرِّ سَأل عنه، فإن كان له أَهْلٌ أَلْزَمَهم النفَقةَ عليه وإلاَّ جعلَ نفقته من بيت المالِ ... ألا تسأل ربّكَ أن يَحُلَّ عُقْدَةَ الكذِبِ عن لسانِك ؟ وإنّما دعواك هذه باطلة كدعواك في الخلّ))[18] .**

ومن رَدِّ (البعير) على ألغاز (الشاحج) يلحظ المتلقي أن شخصية (البعير) لم تدرك ولم تعرف هذا الفن، وأنَّ هذه الشخصية بعيدة كُلَّ البعد عن فنون البلاغة، رغم تنويه (الشاحج) له، في مطلع حكاية ألغازه، أنه سوف يتحفه بأخبارٍ مستظرفة لها في السمع ظاهر ولها في المعنى باطن[19] .

ومن بعدُ جاء ردُّ (الشاحج) الذي به فكَّ استظرافه (ألغازه)، بقوله : **((... والجليل الذي ذكرته في حديثِ ((عَليٍّ)) – عليه السلام – يَحتمِلُ أمرين : أحدهما أن يُعنى به الثمام[20] ...، والآخر أن يُعنى به الجِلَّة . يقال : جَلّتِ الأمة تجِلُّ فالشيء مجلول وجليل[21] ... والنبيذُ في معنى المنبوذ وهو الصبي الذي نُبِذَ . ألغزته عن النبيذ المشروب.**

والجرِّ : أصل الجَبلِ[22]. ألغزته عن الجرِّ من الفخار ....، وقولي: كان يلعنُ البقَرةَ. عنيتُ به جَمْعَ باقِرٍ، وهو الذي يَبْقُرُ بَطْنَ المرأَة أو الرجلِ ... وذكرتُ الثور بعد ذلك ملغزاً[23] ... والعَنْزُ : الأكمة[24] السوداءُ ... والصقر : الدِّبْس[25]، ألغزتُه عن الصقر من الطيرِ ... والبازي الذي كان يُعلِّمهُ أخلاق الصالحين : هو البازي[26] في معنى الظالم القاهر . ويقال بَزَاه إذا ظلمه وقَهَرَه))[27] .

ومما ألغزه المعري على (البعير) أيضاً، على لسان (الشاحج)، أن قال : **((وكان[28] يعظم ((مكة)) ولا نعلمُه ذَكَرَ ((الطائف)) إلاَّ بخَيْرٍ، وأمر بضربِ المدينةِ إذا عصت))[29]** . يلحظ المتلقي أنَّ الكلامَ في ظاهره ينقسم إلى قسمين : الأول مقبول، لأنَّ الإمام بوصفه أميراً للمؤمنين فلابد من أنْ يعظم مكة لما لها من منزلة دينية، ولم تكن الطائف قد أخذت منه (عليه السلام) مأخذاً سيئاً حتى يذكرها بسوء . أما القسم الثاني فلا يقبل إذا بقي على ظاهره، إذ لم يحدثنا التاريخُ أنه أمر بأن تضرب المدينة المنورة يوماً، لما لها من منزلة عظيمة في نفسه، لكنها لغة الألغاز والتورية التي حمَّلها (للبعير) وعدّها من الفنون البلاغية المستظرفة ذات البنيتين الظاهرة والعميقة[30] . إلاّ أن شخصية (البعير) فسرت حكاية (الشاحج) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) على ظاهرها بدلالة ردِّ (البعير) المنتفض والمأزوم، إذ قال : **((وزعمت أنّه كان يعظِّمُ ((مكة)) ولا يقول في ((الطائف)) إلاّ خيراً ويأمر بضربِ المدينة إذا عصت . وأيُّ معصيةٍ تُخشَى من ((يثرب)) وقد دعا لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل تَألَمُ لِضَربٍ لو عَصَتْ أو تُعَلَمُ به إذا عوقبتْ ؟ أفأَرْضُها كانت تُعتَمدُ بالضربِ أم جُدُرُها المُشيَّدة ؟))[31] .**

والحال نفسها مع ما سبق إذ إنَّ المعري، وعلى لسان (الشاحج)، يفكَّ ألغازه (للبعير) ولمتلقيه، قائلاً : **((... والمدينةُ : الأمةُ[32] . ألغزتها عن ((المدينةِ)) مدينةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم. ومن المدينة الأمة قول : ((الأخطل))[33] :**

رَبَتْ وَرَبَا في كَرْمِها ابنُ مَدينةٍ مُكِبٌّ على مِسْحَابِهِ يَتَرَكَّلُ[34])) .

إن حوارية (الشاحج) و(البعير) الحجاجية ، تظهر سطحية (البعير) وخفَّة عقله وعجالته في ردِّ الحجة بالحجة، دون التفكر بالأبعاد الباطنة لكلام (الشاحج)، وبموازنة سطحيته في الرسالة ، مع صفات البعير في الغريزة الحيوانية ، كما أخبرتنا كتب الحيوان في التراث العربي، ندرك سبب اختيار المعري (للبعير) دون (الناقة) ، إذ إنَّ السفة وقلة الحلم هما من صفات البعير دون الناقة عند العرب، والمعري قرن شخصية (البعير) بهذه الصفات ،وجعل من هذه الشخصية رمزاً لسلوك انساني قارٍ في زمان المعري ، إذا ما تأولنا غاية المبدع بالاستدلال العميق لنصوص الرسالة .

لا يكاد يغالي تلميذ المعري العلامة التبريزي عندما وصف ملكة أستاذه اللغوية، قائلاً : **((ما أعرف أنَّ العربَ نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري ... والألفاظ اللغوية يشرحها ويستشهد عليها ...))[35]**، ولا ينفكُ الدكتور طه حسين أن يثني على لغة المعري، قائلاً : **((لم يملكْ أحدٌ أمر اللغة كما ملكه أبو العلاء، ولم يفرغ أحدٌ للغةِ العربية كما فرغ لها أبو العلاء، ولم يتحكم أحد في ألفاظ العربيةِ كما تحكم فيها أبو العلاء))[36]**، لقد أحاط أبو العلاء المعري باللغة الشاملة فلا يغيب عن ذاكرته شيءٌ منها ؛ لأنه خَبِرَ شاذها وغريبها، مهملها ومستعملها .

أما اللغة البديعية ومنها الألغاز والتورية في رسالة الصاهل والشاحج فإن الحوار القصصي الدائر على ألسنة البهائم كشفت لنا أنّ قسما ليس بالقليل من أحداث الرسالة (الحوار) قد وشج بلغةٍ موراتٍ ملغزة، إذ عني المعري بهذا الفن لأنه يعلم أن الكاتب الحصيف هو من تمكن من أن يلغز بعضاً من لغته الأدبية ليشدَّ ذهن متلقيه نحو فك معميات النصِّ الأدبية الأمر الذي يخلق متعةً قرائيةً يعرفها من وطَّنَ نفسه لتذوق وفهم اللغة الأدبية شعراً ونثراً . وبذلك استطاع المعري أن يبِّرز مقدرة لغوية تجلت بإحاطته بالمعجم العربي وسياقاته اللغوية .

المبحث الثاني
السجع في الرسالة

لا يستحسن الكلام المنثور عند المتلقي العربي ولا يحلو إذا خلا من الازدواج، ولا يتركه بليغ من بلغائهم ولا خطيب من خطبائهم، ولو فعل خلاف ذلك أو رفضه لرفض الازدواج في القرآن الكريم، لأن القرآن بنظمه الذي هو خارج عن كلام الخلق يكثر فيه الازدواج، ونماذجه كثيرة[37] .

قطع السجع، بوصفه صنعةً فنيةً، رحلة طويلةً حتى وصل إلى عصر أبي العلاء، وبذلك سيطرَ على أساليب الكتّاب والمترسلين حتى باتَ سمةً لازمة لإنشاء كتّاب عصر أبي العلاء .

وبدأت رحلة السجع منذُ العصر الجاهلي، على أن هذه الرحلة أخذت صوراً مطردة ومنظمة ابتداءً من القرن الأول للهجرة، حتى وصل إلى القرن الرابع للهجرة، فسيطر على أساليب الكتابة الفنية وقبله الذوق النقدي والاجتماعي آنذاك[38] .

بيد أنَّ السجعَ تعرّضَ إلى موجاتٍ من الانتقادِ، وهذا ما استوجب الدفاع عنه بوصفه فناً عربياً[39]، وأدى في النهاية إلى القبول بالسجع بقيود معينة تنسجم مع الذائقة الأدبية العربية، على أن يبتعد فيه عن التعمل والتكلف والاضطراب، ويكتفي الكتاب المولعون فيه بأن يكون عندهم أسلوب ولون من الموسيقى والجمال[40] .

تتباين نسبة استعمال المعري للسجع في رسالة الصاهل والشاحج، وذلك لأنَّ مذهبه في انشاء هذا الفن يرتكز على مرتكزين، فهو في بعض حكايات السرد ،في الرسالة، يذهب بالسجع مذهب الانشاء والتَنميق الفني الذي يبرِّزُ جمالية هذا الأسلوب، فيتلمس متلقي نصه علواً في رنَّةِ سجعاته وتوافقها من جهة الازدواج وانسيابية موسيقيتها، ناهيك عن قصر جملتها مما يجعلها طريةً نقيةً لا تكلف فيها، ومن بعدُ ينحو بعباراته المسجوعةِ، عالية الرقة، منحى يخفت فيه السجع حتى يختفي، إذا مال بالسرد تجاه القصص التاريخي أو التعليمي، حتى لا يكاد المتلقي يتلمسه في النص، ومن ثمَّ نرى السجع يعود لَسرد المعري بعد أن خفت، دفعاً للضجر وامعاناً بإمتاع متلقيه ومطابقة الكلام لمقتضى الحال بلاغياً .

ومن مظاهر ما ذهبنا إليه دعاء (الشاحج) على أبي أيوب (البعير) : **((يا عَوْدُ يا عودُ، لا قُدِّرَ لكَ جَوْدٌ . نَقِبْتَ وحَقِبتَ، وأصبتَ الفاحشةَ فعُوقِبتَ، ومُنيتَ بالأوْقِ المُثقِلَ في [صعود] ذاتِ الزقباتِ تحت الهاضبةِ في الأرضِ المقدِرةِ[41]، وكممتَ كَمَناجِذَ[42]، وصَمِمتَ كالزِّبابِ وعَرْجتَ كالقَرْلاءِ، وفلِجْتَ كفالِجِ أبان، ولا طلعَتَ منَ هذا النَّقْبِ إلاَّ وحَلمُكَ مشابةٌ حَلَمَ السقب[43] ...))[44]**، في دعاء (الشاحج) هذا نلحظ فيه كلاماً مسجوعاً وجملاً قصيرة نغماتها متوافقة لها في الأذن وقع وفي القلب موضع، ولكن ضمن الحكاية نفسها (دعاء الشاحج على البعير)، نرى السجع يخفت شيئاً فشيئاً حتى لا نكاد نتلمسه في قول الشاحج : **((... وأن نبا بك المرتعُ فَهُزِمْتَ . ونَبَحكَ أحدُ الحامياتِ وأنتَ من صَمَمِك لا تسمعُه ولا تراه حتى تطأَه فينشبَ نابه في سعدانتك، فيُصيبَك مما صَنَعَ بك داءُ الكَلبِ ... وسقط فُوكَ حتى لا تَصل إلى أكلِ الورقةِ من الشجرِ كما تأْكلُها الإبلُ ...))[45]** وبعد هذا الخفوت يعود السجع في دعاء (الشاحج) وإبتهالاته على البعير، قائلاً : **((... ولا فارقتْ مِسمَعكَ قصيدةٌ إمّا قصيرةٌ وإما طويلةٌ ... وألفَكَ ابْنَا دانتكَ، وزايلكَ بإذن الله غُراباكَ . وعَظمَتْ سَعْدانتكَ فسرِرتَ، بل طارَتْ حَمامَتُك ووقَعتْ زخمتُك، وغضب عليك سنَّور أهلكَ ...))[46]**، وعلى ذلك نلحظ أن السجع ينحني منحنيات متباينة صعوداً وخفوتاً وبما يتلاءم ومقتضيات الحال، ومن النماذج الأخرى لفن السجع في الرسالة قول المعري على لسان (الشاحج) عن بشارة شخصيةٍ حيوانيةٍ أخرى لها أثرُها في الرسالة ألا وهي شخصية (الثعلب)، إذ يقول : **((... ما لخالِقكَ من غالبٍ، فبورك صباح الثعالب . مازلت ميموناً من رهطِ ميامين، فعُمِرَ ناديك، ولا فقد خيراً واديكَ ... وساعَفَتْكَ الثرملةُ، ولا نأتْ عن وِجارِكَ سَمَلَةٌ ...))[47]** . وإذا واصل المتلقي مفاتشة النص (بشارة الثعلب للشاحج) يرصد خفوتَ السجع أيضاً بدلالة قوله :

((... ومزَّت بفِنائكَ الرَّطانةُ وقد نُهقَ منها بعيرٌ بل وُقِصَ، فتركوه في أرضك لَتأَنَّقَ في غريضٍ من اللحم مَصِيفَكَ، وتدخِرَ للشتاء ما شئت ...))[48] .

ولا يكاد المعري أن يختم نصَّ رسالته هذه إلاَّ لخاتمةٍ ضمَّنها جُملاً وشحت بالسجع حكاية عن نفسه في قوله : **((قد اسهبتُ والمسهبُ كحاطب الليل، ربَّما أخذ بنتُ طبقٍ، فجعلها في بعض الرِّبقِ**[49] **. هذا إذا كان أبصَرَ من غرابٍ، فكيف إذا لم يُبْصِرْ أدنى الآراب ؟))**[50] .

المتلقي لهذه النصوص وغيرها، في الرسالة، يسمع رنين السجع الذي أضفى على النصِّ جواً موسيقياً يطربُ مسامع قارئه، ويفتح باباً لمبدع النصِّ لإظهار مقدرته اللغوية في إدارة النص الأدبي صعوداً في جملة السجع ومن ثمّ خفوتاً وبالعكس .

وعندما أنشأ المعري رسائله الأدبية ومنها هذه الرسالة، بات السجع الزيَّ الانشائي الذي ارتضاه الذوق النقدي العربي آنذاك، فاستعان به فناً وجعله أحد ميادين تفننه، بوصفهِ إماماً من أئمة النثر الفني، مع الالتزام بضوابطه وأصوله البلاغية، لأَنَّ السجع في معترك النقاد لم يكن مقبولاً دون ضابط يحكمه، لذا جاءت نصوصه في هذه الرسالة متفاوتةُ الإيقاع ارتفاعاً وخفوتاً، وهذا ما أشرنا إليه آنفاً .

إنَّ النقاد العرب كانوا مدركين خطورةُ هذا الاطلاق الذي يقود إلى التكلف والتعمل، اللذين تنكرهما الذائقة الأدبية العربية، فكان من الصعوبة بمكان أن يتجنب كل الكتَّاب هذا الاضطراب في انشاء النثر المسجوع[51]، إلاَّ أنَّ المعري كان مدركاً إدراكَ الناقد الحصيف لاستعماله هذا الفن حين قال في رسالة المنيح[52] : **((... فقد كان فيمن مضى قومٌ جعلوا الرسائل كالوسائل وتزينوا بالسجعِ تزين المحول بالرجوع . مارَقوا في درجتِهِ ولا وضعوا قدماً على مَحَجَّتِهِ . لكنهم تعاينوا فما تباينوا ... ولو طَمِعوا في الوصول لاختاروا الرَّتَبَ على الرُّتَب ورَضوا اعتسافَ السبيل . وارتشافَ العوبيل . ليدركوا بِطَلَبهم ما أدركه عن غير جدٍّ ...))**[53] .

هذا النصُّ يشير بشكل جلي وواضح إلى قبول المعري السجع اطاراً لإنشائه، لأنه سمة من سمات عصره، إلاَّ أن هذا القبول لم يأتِ متكلفاً مطلقاً، وإنما قبله بفطنة الكاتب المتمرس . وبذلكَ رفض المتكلف من الانشاء الأدبي، لذا نجد نثره مسجوعاً سجعاً خالٍ من التكلف يتلاءم مع سياق حالِ النص الذي ينشؤه .

الخاتمة

كشفت النماذج التطبيقية التي اجترحناها من رسالة الصاهل والشاحج بروز فنين من فنون البديع في الرسالة وهما الألغاز والتورية، والازدواج أو السجع . فالمعري كان مولعاً بالغاز رسالته وكان ماكراً يظهر شيئاً ويخفي أشياء وعدته في ذلك اللغة التي خبرها وخبر خفاياها وأسراها ظاهرها وباطنها، لذا قام هو بنفسه بفك معميات ألغازه، بصورة سرد قصصي تخلله حوار ممتع على لسان بهائم انتقاها بعناية .

أما فيما يخص السجع فقد خالف المعري نظراءهُ من كتَّاب عصره في صياغة جملته الانشائية ،التي انمازت بأنها جملة تناغم فيها الإيقاع الداخلي الذي امتدَ إلى الخارج عبر رشاقة الألفاظ المختارة، هذا الامتداد هو الذي ميَّز سجع المعري وعموم نثره .

الهوامش

(1) ينظر : سِرُّ الفصاحِة : 212 و218، والمنهج البلاغي في قراءة النصِّ الشعري : 184 .
(2) ينظر : شرح المختار : 1/ 106، والمنهج البلاغي : 184 .
(3) ينظر : سرّ الفصاحة : 217 .
(4) الألغاز : ((الأغاليط من الكلام أو الأحاجي، وقد تسمى المعمى)) : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 180، والتورية : أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، أو حقيقة ومجاز، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد، ويُوَرِّي عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع مع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، ولذلك سمي هذا الفن إيهاماً، وأدخل العلوي فيها الكناية والتعريض والمغالطة والأحاجي والألغاز، وعدَّها فنوناً مشتركة، لكونها دالة على أمور بظاهرها ويفهم عند ذِكرها أمورٌ أخرى غير ما تعطيه، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 434 – 435.
(5) ينظر : المنهج البلاغي في قراءة النصِّ الشعري : 181 .
(6) رسالة الصاهل والشاحج : 219 – 220، وينظر : هامش التحقيق في الصفحتين، ففيهما سردٌ مستهب عن كتابي الملاحن وفتيا فقيه العرب .
(7) ينظر : المصدر نفسه : 198 – 207 .
(8) ينظر : المصدر نفسه : 218 – 234، وبعد ذلك يبدأ استحماق (البعير) بردِّ ما ألغزه (الشاحج) بمعانٍ وتفسيراتٍ مخالفة لما يبغيه (الشاحج) متكأً على ظاهر القول لا باطنه، ينظر : المصدر نفسه : 234 – 450.
(9) نوهت محققةُ الرسالة (د. عائشة عبد الرحمن) إلى أن الأسماء التي جُعلت بين قوسين فهي من الأعلام، ومن لم تميزه بقوسين من الأسماء فهو من باب التورية والألغاز، على أن يتولى أبو العلاء تفسيرها لاحقاً نتيجة لكلف (البعير) بحلها . ينظر : المصدر نفسه : 222 .
(10) المصدر نفسه : والصفحة .
(11) الحسن والحسين : كثيبات معروفان في بلاد بني ضبّة يقال لأحدهما الحسن والآخر الحسين، معجم البلدان : 2/ 260 .
(12) القاموس مادة (عُلُوُ) : 1259 .
(13) المصدر نفسه مادة (الخلُّ) : 942 .
(14) المصدر نفسه مادة (الجعفر) : 329 .
(15) رسالة الصاهل والشاحج : 351 – 353 .
(16) المصدر نفسه : 223 .
(17) خشّ أنفه : أدخل فيه الخشخاش، وهو ما يدخل في عظم أنف البعير من خَشب، القاموس (الخشخاش) : 544 . عَرَنها : أذلها، وعرن البعير يعرنه، وضع في أنفه العرانِ، وهو عود يُجعلُ في وترت أنفه، القاموس (العرن) : 1162.
(18) رسالة الصاهل والشاحج : 258 - 259.
(19) رسالة الصاهل والشاحج : 219 – 220 .
(20) الثُمام : نبات يستعمل لإزالة البياض من العين، ويقال لما لا يَعْسُرُ تناوله : على طرف الثمام لأنه لا يطول، القاموس (ثمّهُ) : 1034 – 1035 .
(21) الجِلَّةُ : البَعرُ، أو البعرةُ، أو الذي لم ينكسر، وجلَّ البعر : جمعه بيده، القاموس (جَلَّ) : 927 .
(22) الجرُّ : أصل الجبل، وهو الوهدةُ من الأرض، وجحرُ الضبع والثعلب، القاموس (الجرُّ) : 327 .
(23) يريد هنا ذكر البقر الذي لم يعلم منه إلاّ خيراً، على خلاف من يبقر بطون البشر من بني البشر، ونلحظ هنا أن ثمة موازنة يبغيها المعري بين عالم الحيوان الفطري وعالم البشر الذي يجانب الغريزة الآدمية متجها نحو الحيوانية، فهنا مقاربة اجتماعية .
(24) الأكمة : التلُّ من حجارة واحدة، أو هي دون الجبال، القاموس (الأكَمّةُ) : 1026، والعنز : الأكمة السوداء، القاموس (العنز) : 473 .
(25) الصّقر : الدِّبْس، وعسل الرطب، والزبيب، القاموس (صقر) : 385 .
(26) البازي : من بزا يبزو، إذا تطاول، والرجل قهره، وبطش به، القاموس (بزو) : 1309 .
(27) رسالة الصاهل والشاحج : 354 – 356 .
(28) يريد علي بن أبي طالب (ع) .

(29) رسالة الصاهل والشاحج : 223 .
(30) ينظر : المصدر نفسه : 219 .
(31) المصدر نفسه : 259 .
(32) ينظر : القاموس (مَدَن) : 1181 .
(33) شعر الأخطل، صنعة السكري : 23 .
(34) رسالة الصاهل والشاحج : 356 .
(35) تعريف القدماء بأبي العلاء : 569 – 570 من كتاب الانصاف والتحري في رفع الظلم والتجني .
(36) المعري شاعر أم فيلسوف، د. طه حسين، مجلة الهلال، عدد تموز سنة 1938، مجلد 46 ((عدد خاص عن أبي العلاء المعري)) : 8/ 960 .
(37) ينظر : كتاب الصناعتين : 233 .
(38) ينظر : البيان والتبيين : 1/ 284 وما بعدها، والفن ومذاهبه في النثر العربي : 108 .
(39) ينظر : البيان والتبيين : 1/ 387 .
(40) ينظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري : 1/ 105 .
(41) النقبة : قرحة تخرج من جنب البعير (الجرب)، والحقب : احتباس البول، والزَّقبُ : الطريق الضيقة، ينظر : القاموس والصحاح .
(42) الكمم : غطاء البصر كأنه كمامة، وهو ما يُكمم به فم البعير لئلا يعض القاموس : (الكم) 1103، والمناجذ : جمع (جلذ)، والجلذُ بالضم وليس بتصحيف (الخُلد) : الفأر الأعمى جمع مناجذ، القاموس (الجلوذ) : 296 .
(43) الزباب : فأرٌ عظيمٌ أصم، القاموس (زبب) : 70، والسقب : ولدُ الناقة ساعة يولد، وهو الذي لا حلم عنده، القاموس (السقب) : 73 .
(44) رسالة الصاهل والشاحج : 380 .
(45) المصدر نفسه : 381 – 382 .
(46) المصدر نفسه : 383 .
(47) المصدر نفسه : 412 – 413 .
(48) المصدر نفسه : 413 – 413 .
(49) بنت طبق : الداهية، والسلاحف، والحياتُ، القاموس (الطبق) : 851، والربق : حبلٌ فيه عِدّةُ عُرى، يشدُّ به البَهْمَ، كل عُروةٍ : ربقةٌ بالكسر والفتح، القاموس (الرِّبقُ) : 834 .
(50) رسالة الصاهل والشاحج : 708 .
(51) ينظر : دفاع عن البلاغة : 26 .
(52) المنيح : قدحٌ بلا نصيب، وقدحٌ يُستعار تيُمناً بفوزه، أو قدحٌ له سهم، أو هو سهم من سهام الميسر مما لا نصيب له إلاّ أن يمنح صاحبه شيئاً : القاموس (منحه) : 214 .
(53) وتزينوا تزين المحول بالرجع : الصبي أتى عليه حول، والرجع : خطوط الوشم، محجته : طريقه، والرَّتَبَ : خشونة العيش، والرُّتَب : المنازل الرفيعة، وارتشاف الوبيل : وهو الماء الثقيل الغليظ، مجموع الرسائل (مع شرح لها) : 16 – 17 .

المصادر والمراجع

1. البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ)، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط5، 1985 .
2. تعريف القدماء بأبي العلاء، إشراف الدكتور طه حسين، تحقيق عبد السلام محمد هارون وآخرين، منشورات الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة – مصر، 1965 .
3. دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيّات، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة – مصر، 1954 .
4. رسالة الصاهل والشاحج، أبو العلاء المعري (ت 449 هـ)، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط2، 1984 .
5. سِرُّ الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت 466 هـ)، تصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح، مصر، 1969 .

6. شعر الأخطل، غياث بن غوض التغلبي، صنعة السكري، روايته عن أبي جعفر محمد بن حبيب، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ط4، 1996م .
7. شرح المختار من لزوميات المعري، تحقيق الدكتور حامد عبد المجيد، مطبعة دار الكتب، 1970 .
8. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 718 هـ)، تحقيق وتقديم الدكتور يحيى مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط2 ، 2010 .
9. الفن ومذاهبه في النثر العربي، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط5، د . ت .
10. كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري (ت 395 هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط1، 2006 .
11. مجموع الرسائل ((مع شرح لها)) أبو العلاء المعري (ت 449 هـ)، منشورات الجمل، بغداد – بيروت، ط1، 2011 .
12. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدكتور أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان، إعادة طبع، 2007 .
13. النثر الفني في القرن الرابع الهجري، الدكتور زكي مبارك، دار الجيل، بيروت – لبنان، 1975 .

الدوريات

- المعري شاعر أم فيلسوف، الدكتور طه حسين ، مجلة الهلال ، عدد تموز 1938 ، مجلد 46 (عدد خاص عن أبي العلاء المعري) .